المسلم العثماني كآخر في كتابات لويس برنارد

الملخص

أ. بن سخري زبير[1]

ظهر التركي أو العثماني في كتابات لويس برنارد كممثل للمسلم الشرقي، حيث بدأت تتشكل ملامح ثنائية الإسلام والغرب منذ القرن السابع الميلادي واحلاله محل المسيحية في الشام والبيت المقدس، إلا أن وجود المسلم العثماني كقوة عسكرية متاخمة لأوروبا هو الذي جعل منه موضوعا استشراقيا نصيا بتميز. تتبع لويس برنارد المسلم العثماني في ارشيف نصي يمتد من المراسلات ونصوص التاريخ الى الرحلة كاشفا عن نظام تمثيله كآخر.

كلمات مفتاحية: لويس برنارد، المسلم العثماني، الإسلام، الاستشراق، الآخر.

* * *

The Ottoman Muslim as the Other in the Writings of Louis Bernard

ABSTRACT

Prof. Ben Sakhri Zubair

The Turkish or the Ottoman has been presented in the writings of Louis Bernard as a representative of Eastern Muslim. The features of dualism of Islam and the West began to take shape in the seventh century A.D. replacing Christianity in the Levant and Jerusalem. However, the main reason for which the Ottoman was a distinctive subject of Orientalism is that Muslim Ottomans existed as military power at the borders of Europe. Louis Bernard tracks texts referred to the Ottoman Muslim, in the archive of correspondences, texts of history and writings about travels, revealing the methodology of representing him as "the other".

Keywords : Louis Bernard, Ottoman Muslim, Islam, Orientalism, the Other .

* * *

استهلال

يعد برنارد لويس؛ الأستاذ المتقاعد للدراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون الشهيرة في الولايات المتحدة، والأستاذ السابق في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية

بجامعة لندن، والمؤرخ المثير للجدل في العالم العربي منذ الستينات من أكثر المستشرقين إثارة للسؤال؛ لما أولاه من أهمية في دراسة المسألة الشرقية وعلاقتها بنشوء القوميات العربية، و ''تميز برنارد لويس بقدرة هائلة على تحليل بنية المجتمع الإسلامي ثقافيا وفكريا من خلال الاطلاع على أرشيف الإمبراطورية العثمانية، ودرس أسباب قوة وضعف هذه الإمبراطورية والقوانين المحركة للمجتمع الإسلامي في ظل النموذج العثماني''،[2] هو من جيل الأكاديميين الذين درسوا العالمين العربي والإسلامي، وألف كثيرا من الكتب التي لقيت حفاوة وأصداء نقدية كبيرة، من بين أشهر مؤلفاته كتابان تصدرا كلا في حينه قائمة ''نيويورك تايمز'' هما: ''ما الذي حدث خطأ ?What Went Wrong'' و ''أزمة الإسلام Crisis of Islam''، أما كتابه ''الشرق الأوسط'': ملخص مختصر للألفي سنة الأخيرة. فقد تصدر قائمة ''فورن أفيرز'' الأميركية لأكثر من عام، وكان الأول في التقدير النهائي لدائرة النقاد الذين درسوا هذا الكتاب، ولكن يبقى كتاباه ''انبثاق تركيا الحديثة'' و ''الحشاشون'' أبرز عملين في تاريخه الأكاديمي.

اعترف لبرناردد لويس منذ أمد بعيد، بأنّه أهم مؤرخ للشرق الأوسط، وهو حاصل على خمس عشرة دكتوراه شرفية، وترجمت كتبه إلى أكثر من عشرين لغة، وبرز أخيرا كأهم مستشار في البيت الأبيض الأمريكي، لموافقة السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لتوجهاته وآرائه.

مقدمة:

كثيرا ما نشعر بالصراع والصدام مع ما يحيطنا، ولكننا نتجاوز هذا الصراع في شكله العلني إلى شكله الرمزي؛ لأنه حسم وبقي فقط أثره النفسي الذي تتشبع به اللغة المتداولة يوميا، فمن العادات الموروثة في المجتمع الجزائري فطور الصباح على الطريقة الفرنسية، قهوة وحليب مع قطعة خبز على شكل هلال (Croissant)، فهذا الشكل ليس خبزا في جوهره بقدر ما هو رمز ''ليس للرمز وحده فقط معنيان، الأول محسوس، خاص، والآخر تلميحي، مجازي، ولكن يظهر لنا تصنيف الرموز أيضا الأنظمة المتعارضة التي ترتب على أساسها الصور...''،[3] فالهلال الذي اعتمده المسلمون أداة للحساب أصبح رمزا لهم في رايات الحرب -حتى ليعلق لويس برنارد على فتح القسطنطينية '' وكانت النتيجة أن قتل القسطنطين الأخير مقاتلا مع جنوده، ورفع الهلال فوق قبة آيا صوفيا، واتخذ سلطان الروم الإقامة في مدينة الإمبراطورية ''-[4] ويعلو المساجد في أبهى الأشكال ومن أصلب المواد، أضحى من العجين ويأكل

كل صباح انتقاما من الإمبراطورية التي شارفت أسوار فيينا، يا له من صراع شديد لم تكفه ساحات المعارك والقتلة فيمتد إلى الرموز والخيال، وإن كان هذا رمزا للمنتصر، فبالمقابل ستحمل الهزيمة في الرموز والخيال ولا أقرب للخيال من اللغة، فما زلنا حتى الآن نردد في المساجد والمدارس وأحاديثنا اليومية العبارة التالية ''إن هذه الدنيا هي جنة الكافرين وجحيم المؤمنين '' فيما يفصل لويس برنارد سياقها الثقافي الذي نشأت فيه إبان القرن الثامن عشر حيث بدأ المسلمون يشعرون بوضع جديد؛ وما نقل لهم عن أوضاع أوروبا الداخلية وأنهم لم يعودوا قادرين على تلبية واجبهم الديني في ظل تَوَسُّع رقعة انتشار الإسلام أمام الزحف النمساوي والزحف الروسي،[5] لقد شكل صدام وصراع الغرب مع الإسلام مادة ثرية لبحث تمظهر الأنا والآخر في مختلف الأبعاد والتجليات.

شكل الآخر موضوعا مهما في الدراسات الأدبية والثقافية والاستشراقية، وكثيرا ما ربط بمفهوم الصورة والتمثل الواعي واللاواعي، غير أن مفهوم الآخر عند برنارد لويس لا يتجسد في سلوكات وصور جماعية وفردية، نفسية واجتماعية، بل آخر لويس برنارد هو مكون أنطولوجي(وجودي) يمثل مرآة عاكسة للأنا من خلال سيرورتها، استطاع تشخيص وتعميق تفسير الصراع الغربي الإسلامي ، الذي تعد الذات أولى ساحات معاركه في تجليات الثقافة والقيمة متجاوزة الفرد وغارقة في مفاهيم الذات الجمعية والحضارة والوطن والدين، لن نجد مع لويس برنارد صور المتحضر والبربري والنبيل والمتوحش بل جملة من العلاقات والوسائل التاريخية التي أمكنت للأنا أن تقرأ الآخر في صورة أوضح وتتمثله في علاقات دنيوية تاريخية حقيقية بعيدة عن الخيال والأسطرة، فكون الإصرار على الصراع من الطرفين أجج الصدام وعدد وسائله واختلفت نتائجه أيما اختلاف، فقوة الإمبراطورية العثمانية التقليدية مكنتها من الوقوف أمام جدران فيينا مرتين والبقاء في جزء معتبر من أوروبا الشرقية، وقوة المعرفة الحديثة الأوروبية والاستشراق مكنتا أوروبا من استرداد أراضيها وتفتيت العالم الإسلامي بالكامل؛ وهذا لأن أوروبا لم تهمل الآخر الوجودي في تكوين أناها وتغافل عنه العثماني ظانا أنه لن تقوم له قائمة بعد في التاريخ، حولته أوروبا من عدو يربض على الحدود إلى مادة للتأريخ والسرد من أخبار الرحالة ورسائل السفراء يسهل التأريخ لها والعودة إليها ''التأريخ هو أحد العناصر الأولى في قوة الهيمنة الأيديولوجية للأمة أو الطبقة، سواء كان التأريخ للذات، أو لبناء تاريخ الآخر وصورته لصالح الذات، والتأريخ الإمبراطوري أكثر من غيره صاغ أدبه الإمبراطوري من تصورات وتواريخ وصياغات للأوضاع الاجتماعية بتيسير من 'غياب الآخر' غالبا''،[6]

لم يول لويس برنارد أهمية لصورة وتمثل الآخر اجتماعيا وثقافيا عند العامة أو الخاصة بل أولى حضور العثماني أهمية في المدونات السياسية والفكرية والأدبية وحضوره كعلاقة وجودية مساهمة في تشكيل تاريخ أوروبا والعالم .

١. تحولات المركز والهامش في القرون الوسطى:

شكل ظهور الإسلام وانتشاره حدثا تاريخيا مهما إذ قلب الموازين السياسية في خريطة العالم القديم (إفريقيا، وآسيا، وأوروبا) وغيّر الحدود الثقافية والإثنية في الدائرة الحضارية الكبرى (مصر، وبلاد الرافدين، واليونان، وبيزنطة، وبلاد الفينيق...)، وأضحت الدولة العربية الاسلامية في شبه الجزيرة العربية وامتدادها شرقا وغربا كيانا يصنع التاريخ ويبدع الحضارة ويخلق الهويات، فأضحى التسامح والصراع عناوين لضبط علاقات الدولة العربية الاسلامية مع غيرها من الامبراطوريات القائمة والفاعلة في حركة التاريخ والثقافة والتجارة، "عاش الإسلام لأكثر من ١٤٠٠ عام، أي منذ ظهوره في شبه الجزيرة العربية والاندماج في الامبراطورية الإسلامية والحضارة المسيحية السابقة التي قامت على شواطئ البحر المتوسط الشرقية والجنوبية جنبا إلى جنب مع المسيحية متجاورين دائما، ومتنافسين غالبا، وعدوين أحيانا، ويعرّف كل منهما الآخر بمعنى ما ويحدده"،[7] لم يكن من السهل قبول الإسلام كحضور آخر بين الإمبراطوريات القديمة القائمة في أصلها على وجود القوة كشكل واحد للوجود، فيما جاء الإسلام بشكل جديد للوجود وهو الإنسان، ولكن سرعان ما دبّ الفشل في المفهوم الحضاري للإسلام لتأثره بأنظمة الحضارات القديمة الفارسية والبيزنطية والرومانية ومارس أيضا لعبتهم التاريخية في جميع تجلياتها، فقد حسم الصراع مع الفرس والأقباط البربر وبقية الشعوب الأخرى والإثنيات التي كانت جلها وثنية، وما توقف يوما الصراع والصدام مع ورثة المسيحية -بيزنطة وروما- ولازال مستمرا من القرون الوسطى إلى الوقت الحالي بعنوان صراع الإسلام والغرب، مع تبدل مركزي الصراع من فترة زمنية إلى أخرى "ويبدوا الإسلام والمسيحية بالمقارنة مع الأديان والثقافات القديمة في آسيا وافريقيا، ديانتان شقيقتان تتقاسمان موروثا عظيما وتتشاطران -وغالبا ما- تتنازعان السيادة، وترى كل منهما أنها حاملة آخر تنزيل إلهي للناس وأنها المسؤولة عن نشر هذا التنزيل في بقية أنحاء المعمورة. فقد رأى كل دين في الآخر غريمه، ومنافسه الوحيد حقا في هذا الميدان وهذا العمل. وكانت النتيجة سلسلة طويلة من الصراعات، ابتدأت بالحروب المقدسة الأولى -الجهاد والحملات الصليبية، والفتح والاسترداد- واستمرت مع مد الإمبراطورية الإسلامية في أوروبا

والإمبراطوريات الأوروبية في بلاد الإسلام. في هذا الصراع الطويل الذي لا ينتهي- للأسف- افترقت هاتان الحضارتان بما تشابهتا به أكثر مما اختلفتا فيه''،[8] تغافل لويس برنارد عن طبيعة الإسلام المختلفة عن المسيحية المُرَوْمَنَة[9] التي أضحت سلطة رهبنة وتدجين فيما كان الإسلام أكثر انفتاحا على الدنيا والحياة من هنا استشعرت الحضارات القديمة خطره الكبير؛ كونه دين تَحَرُر وليس دينا لتكريس أشكال السلطات القديمة والمحافظة على أنظمة الحكم العائلية والاستبدادية ''وحتى بعد انحطاط سلطة الخلافة المركزية، وانبثاق ملكيات إقليمية داخل دنيا الإسلام[10] الشاسعة، كانت الدولة الإسلامية الواحدة من القوة بمكان تمكنت معه، حتى أوقات حديثة نسبيا من الحيلولة دون ظهور قوى إقليمية أو عائلية حاكمة أو قومية، كتلك التي بدأت بالظهور في أوروبا حتى في القرون الوسطى''،[11] من ثَمَّ كان ظهور الإسلام بمثابة ظهور حقيقي لمفهوم الآخر المختلف أنطولوجيا عن مفهوم الأنا القروسطية، واستحق أن يوصف عهده في فتراته الأولى بالفتح الحضاري والإنساني الحقيقي.

انتهى الصراع الطويل بين المسلمين والمسيحيين في جنوب أوروبا على إيطاليا وإسبانيا والبرتغال بانهزام المسلمين، وفي غضون ذلك شب صراع جديد في الشرق، من قوة جديدة صاعدة لكنها مسلمة، هم الأتراك، فزاعة أوروبا.

يختم لويس برنارد مقدمة كتابه ''إستنبول وحضارة الخلافة الاسلامية'' بقول أحد القساوسة في عصر اليزابيث معلقا عن سقوط المسيحية وتأسيس قوة جديدة جنوب شرقي أوروبا ''إمبراطورية الأتراك المجيدة وإرهاب العالم الحالي''.

ففي القرن الحادي عشر ظفرت الجيوش التركية بجزء كبير من هضبة الأناضول من البيزنطيين، محولين ما كان يونانيا مسيحيا إلى بلاد تركية إسلامية '' وفي موضوع نشأة قوة الأتراك وانتشار الشعوب التركية وتقاليدها في أراضي الإسلام تتميز فترتان بصفة خاصة، الأولى: فترة سلاطين السلاجقة الذين حكموا الشرق الأوسط حوالي قرن من الزمن، منذ فتحهم لبغداد في ١٠٥٥م إلى موت السلطان سنجر ١١٥٧م، والثانية: فترة الفتح المغولي في القرن الثالث العشر الميلادي وغلبة المغول ونفوذهم الذي تبع ذلك الفتح ''،[12] وما إن سقطت القسطنطينية كآخر حجر في البناء، حتى أطلقت من عاصمتهم الجديدة استانبول سلسلة من الحملات المتلاحقة التي أوصلتهم سهول هنغاريا ومرتين ١٥٢٩، ١٦٨٣ جدران فيينا، واستمر هذا الرعب على أوروبا مدة قرن ونصف أنساها تهديد العرب في إسبانيا.

تعد المرحلة العثمانية من المراحل الفاصلة في تاريخ المسيحية، ليس فقط بالنسبة للشرق بل بالنسبة للتاريخ العالمي، حيث أصبحت الأراضي المقدسة المسيحية والبطريركيات الثلاث؛ أنطاكية، الإسكندرية وأورشليم تحت السيطرة العثمانية إضافة إلى بطريركية القسطنطينية وذلك لمدة طويلة تجاوزت ٤٠٠ سنة (١٥١٦-١٩١٨)،[13] فأضحت مقومات الآخر أكثر جلاء بالنسبة للغربيين المسيحيين حين قرعت جيوش وثقافة هذا المسلم الوافد الجديد عقر ديارهم، لتغير حدودهم وتشطر أراضيهم وتفرض الضرائب وتنشر الدين الجديد ''في النصف الأول من القرن السادس عشر شملت الفتوحات العثمانية معظم العالم العربي فأصبح العثمانيون القوة العظمى في العالم الإسلامي، وحماة الأراضي المقدسة المسيحية والإسلامية... وفي الوقت الذي كانت فيه السلطة العثمانية تزداد سيطرة واتساعا، كانت أوروبا المسيحية تعاني من الانقسامات الدينية والسياسية. ففي السنة التي فتح فيها السلطان سليم الأول مصر (١٥١٧) كان لوثر يعلق بنوده الاعتراضية على باب كنيسة ويتنبرغ مهاجما البابا والعقيدة الكاثوليكة، فأدى ذلك إلى نشأة البروتستانتية وقيام الحروب الدينية بين المسيحيين في أوروبا''،[14] بقدر ما تدل موازين القوى؛ من قوة البحرية والمشاة والسلاح والرقعة الجغرافية والسيطرة التجارية والطرق البرية والبحرية على قوة الإمبراطورية بقدر ما تدل مواصفات ووضعية الأقليات في غير موطنها الحضاري على طبيعة العلاقة الحقيقية بين الإمبراطوريات، وهذا ما دلت عليه وضعية المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية، ووضعية المسلمين في أوروبا المسيحية.

إن مثّل الرق القادم من افريقيا نظاما اقتصاديا مهما في المجتمعات المسلمة والشرقية، فقد مثّل الرق القادم من شرق أوروبا مظهرا جماليا كماليا ''غالبا ما حاربت القوات التترية تحت إمرة القيادة العثمانية ضد أعداء أوروبيين، في الوقت الذي وفرت فيه غارات التتار على القرى الروسية والأوكرانية والبولندية والليتوانية البضاعة لأسواق العبيد في إستانبول لعدة قرون''،[15] لقد شكلت أوروبا الشرقية معينا لا ينضب لعالم الحريم العثماني الذي أعطى خصوصية لنظام الحكم العثماني دون بقية الأنظمة الاستبدادية الأخرى، فإن استرق القدماء السود لامتهانهم، فقد استرقت الأوروبيات لجمالهن ولاختلافهن عن المشرقيات، ولرؤية السلطان العثماني أحقيته في وروث بيزنطة حتى أنه كان يسمى ''سلطان الروم''، فهذا الاسترقاق ما هو إلا تأكيد سلطة نفسية على شعوب مسيحية مختلفة ترفض الخضوع لهذا العثماني المسلم الشرقي، وقد استشعر البابا والملك هذه الإهانة فحظروا هذه التجارة وما كانت إلا لتتأكد في تسمية الأوروبيين الشرقيين بـ ''السلاف'' أي العبيد، ولكم عانت انكلترا وإيرلندا من

غارات القراصنة البربر الذين كانوا يحملون الأسرى لأسواق العبيد في الجزائر، وقد عبر لويس برنارد عن تذمره أن شبه فعل الأتراك والتتار بتجارة العبيد الأوروبيين ما كان قد فعله فاسكودي غاما بتجارة التوابل الشرقية، فقد ذهبوا إلى المصادر وحصلوا على ما يريدون.[16]

شملت الإمبراطورية العثمانية القارات الثلاث وحكمت العديد من الشعوب والإثنيات؛ الروم، الأرثوذكس، السريان، اليعاقبة، الأرمن، الموارنة، الكلدان ،البروتستانت... ولم تكن الطوائف المسيحية تتمتع بالمساواة التامة مع المسلمين، ولكنهم تمتعوا ببعض الحريات الدينية في ممارسة شعائرهم الدينية، وحافظت الدولة على أرواحهم وممتلكاتهم، فقد اعتمد السلاطين العثمانيون نظام أهل الذمة على المسيحيين واليهود، مميزين بين ''دار الحرب'' و ''دار السلام''؛ التي ضمت أهل الذمة ''دار العهد'' وفق معايير وشروط خاصة كرسها الفقه الإسلامي،[17] وطبقها العثمانيون في الأراضي التي احتلوها، فلم يكن للمسيحيين أن يلبسوا لباس المسلمين، ولا أن يركبوا الخيل، ولا أن يتقلدوا السلاح مثلهم، وما كانت شهادتهم لا تقبل في المحاكم، وإن أرادوا بناء كنيسة او ترميمها استصدروا فرمانا سلطانيا،[18] وحين انقلبت الموازين وأصبحت الإمبراطورية العثمانية تعرف بالمسألة الشرقية أو الرجل المريض نال المسيحيون حظوة وحماية من قوة خلفياتهم الحضارية الروس والفرنسيس والإنجليز. كما يشير لويس برنارد في كتابه أزمة الإسلام إلى أنّ هذا التقسيم يرسم حدوداً بين المسلمين وغيرهم، ويجعل دواعي الاندماج وقبول الآخر أمرا مستحيلا خاصة في ظل "ثقة المسلمين بالنفس وشعورهم بالقوة" واعتزازهم بدينهم وتمسكهم بأمجاد تاريخهم وموروثهم في هذا التاريخ.

٢. الأنا العثماني والآخر الأوروبي:

ركزنا في بحثنا هذا على كتاب لويس برنارد ''الإسلام والغرب''، لأنّه غني بإظهار العثماني كآخر لأوروبا دون منازع، ولمشروطية العلاقة بين الأنا والآخر، فكلٌ صناعةٌ لحده الثاني، لا تنطبق على علاقة العثماني بالأوروبي، لأن الأخير انفلت من الأول وتفوق عليه، وما سر هذا التفوق إلا غياب الآخر الأوروبي من أنا العثماني، فإهمال العثماني الأوربي من حيز اهتمامه ''تعكس الكتابات العربية صورة قفار بعيدة، غير مكتشفة، يقطنها أناس غريبو الأطوار، مثيرون، وإلى حد ما بدائيون، لم يكن لديهم ما يخيف أو ما يمكن تعلمه. غامر عدد قليل من المستكشفين الجريئين من اسبانيا المسلمة وشمال افريقيا بالولوج إلى داخل أوروبا المظلمة، وتركوا وصفا لرحلاتهم،

وهي رحلات نسمع منها النغمة نفسها، لشيء يثير الازدراء... وبالفعل لم يكن هناك أي سبب يجعلهم يكنون أي احترام لأوروبا الوسطى والغربية اللتين كانتا في القرون الوسطى على درجة متدنية جدا من الحضارة، أخلاقيا وماديا، إذا ما قورنت بالبلاد التي تشكل قلب الإسلام"،[19] لم يكن اهتمام العثمانيين بأوروبا إلا كدار حرب يستوجب فتحها عسكريا وإخضاعها ثقافيا وسياسيا للامتداد العثماني، ولم يبحثوا يوما ما في سر مقاومة أوروبا العنيد للزحف العثماني وعدم خضوعها، رغم أن الإمبراطورية العثمانية كانت هي الأقوى، إلا أن شعور أوروبا بالندية والمساواة مع غريمها، ومحافظة المسيحية على دعوتها السماوية مكنا أوروبا من الصمود والمقاومة أكثر "ومع أن المسيحية والإسلام كانا ندين، بل متنافسين فعلا، من أجل دور الدين العالمي ...لم يرغب أي منهما الاعتراف بالآخر على أنه بديل قابل للتطبيق. جرى التعبير عن عدم الرغبة هذه بعدة طرق ...وأبدى الأوربيون في أجزاء متعددة من القارة ترددا غريبا في تسمية المسلمين بأي اسم يحمل مدلولا دينيا ، مفضلين نعتهم بأسماء عرقية، وهادفين من خلال هذا إلى إضعاف اعتبارهم وأهميتهم، وتقليص دورهم في نطاق محلي أو حتى عشائري، وقد اعتاد الأوربيون في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة، أن يسموا المسلمين بالعرب (Saracens)، أو المغاربة (Moors)، أو الأتراك (Turks)، أو (Tatars)، تبعا للشعوب الإسلامية التي صادفوها. فالترك إلى حد كبير هو اسم أكثر دول المسلمين قوة وأهمية، فقد أصبح مرادفا حتى لكلمة "مسلم"، وكان يقال عن معتنق الإسلام إنه (أصبح تركيا)، أنى كان مكان الاعتناق"،[20] ومما يدل على شيوع ارتباط اسم المسلم بالتركي انتشار التسمية في أمريكا اللاتينية حتى ليشير الأديب غابريال غارسيا ماركيز في رواية "قصة موت معلن" إلى نعت الأهالي للعرب المهاجرين لأمريكا اللاتينية بالأتراك؛ حيث كان الإسلام ممثلا في الإمبراطورية العثمانية كمركز في ظل بداية ظهور العوالم الجديدة أمريكا وأستراليا.

من الأسئلة الملحة التي كان يطرحها المفكر الفرنسي من أصول جزائرية محمد أركون، ما هو سر تزامن صعود الغرب وتقهقر الشرق، الأول ممثلا في أوروبا الغربية والثاني ممثلا في الإمبراطورية العثمانية.

حيث تغيرت موازين القوى بين المنتصر والمهزوم وإننا لنجد لويس برنارد يشخص تغير اهتمامات أوروبا بالإمبراطورية العثمانية من فترة إلى أخرى، فيما تغط الأخيرة في نوم عميق وتغفل عما يحضر لها في أوروبا "وفي المواجهة الكبرى الثانية، هذه المرة بين أوروبا عصر النهضة والاسلام العثماني، أغري قلة من الناس بتغيير

دينهم، وهؤلاء الذين تحولوا أتراكا هم في الأغلب مغامرون يبحثون عن حياة ناجحة في بلاد الفرص العثمانية، وبقي المسلمون، كما هم دائما، لا يعيرون أذانا صاغية لمزاعم ما يعدونه دينا قديما وباطلا، وكان المجهود التبشيري المتزايد لأوروبا المسيحية موجها بالدرجة الأولى إلى الأمريكيتين والشعوب الأبعد في آسيا وأفريقيا وشرق وجنوب البلاد الإسلامية، فالتهديد الإسلامي لأوروبا، بشكله العثماني، كان عسكريا وسياسيا في المقام الأول واجتماعيا إلى حد ما. إن التحدي والفرصة التي طرحها المشروع الأوروبي لم يكمنا في هداية الوثنيين ولكن في استثمار الأسواق الواسعة في الممالك العثمانية الممتدة في أوروبا وآسيا وأفريقيا''،[21] فإن كان تقوقع العثمانيين على معتقداتهم القديمة قد نشأ من بين ظهرانيهم ما يسيل لعاب أوروبا، إنه السوق بمفهومه الموركانتلي البورجوازي، الامتداد الحديث والحقيقي للحضارة الجديدة القائمة على مفهوم العرض والطلب، لم يكن التفوق الأوروبي ماديا بل مفهوميا في رؤيته للعالم، ''وفي الجامعات التي كانت تظهر في كل أوروبا الغربية، كان الباحثون الذين تشربوا حب الاطلاع وحماسة عصر النهضة والتزموا طريقة فقه اللغة في الإنسانيات، قد نذروا أنفسهم لدراسة النصوص العربية الكلاسيكية، ما كان منها دينيا وغير ذلك، لقد سعى رجال الشؤون العمليون، المهتمون بالدبلوماسية والحرب والتجارة إلى الأخبار القادمة من تركيا وبذلوا جهودا جبارة لجمع التقارير وترجمتها، وخصوصا تلك المتعلقة بالموقف الحالي والماضي القريب لهذا الجار المرعب، بل المغري أيضا ...فعندما نشر ريتشارد نوليس، قس دير ساندويش عام ١٦٠٣، وعلى الرغم من أنه لم يعرف التركية، ولم تطأ قدمه أبدا أرضا خارج انكلترا، فقد كان قادرا على أن يعكف على قدر كبير معتبر من الأدبيات التاريخية بلغات أوروبية عديدة بما فيها ترجمات لكتابات تاريخية تركية، ليصف وبتفصيل كبير وبعمق تاريخي ملحوظ ''إمبراطورية '' الأتراك العظيمة المصدر الحالي لرعب العالم''،[22] لقد تغيرت لغة التحاور بين العالمين، وشكل ظهور الجامعة كمؤسسة معرفية في المجتمع الغربي نهضة حقيقية في كيفية التعامل مع الأخبار الواردة من تركيا، ربما ما زال نفس الخطر والتهديد قائمين لكن الرؤية مع المعرفة أضحت أوضح مما كانت عليه، فهي بداية نشوء الاستشراق والمعرفة بالشرق، فيما تزحزحت القرون الوسطى قليلا من أوروبا لتشمل الإمبراطورية العثمانية التي حافظت كثيرا على بقاء نظامها في شكله القديم وأهملت سنة التغير في الحياة، كونها غفلت عن الآخر ومتغيرات حياته، ويتوافق الباحث المغربي علي أومليل مع لويس برنارد أن سر الانهزام يكمن في إهمال الآخر كشرط في بناء الأنا المستمر ''ففي حين كان العرب والمسلمون أقوياء في الماضي

كان الاختلاف الداخلي مقبولا؛ ولم يكن هناك حرج في بسط معتقدات الشعوب الأخرى، بل كان تناولها يتسم بالعرض الذي يتوخى الحياد على النحو الذي لا يصدر إلا عن ثقة بالنفس"،[23] ثم يمضي لويس برنارد في تعميق تحليلاته لانقلاب الموازين، وكيف تحولت الإمبراطورية إلى خطاب معرفي في كل تمظهراتها اللغوية والحضارية والمادية، فيما اقتصر اهتمام الضباط العثمانيين بما هو عسكري فقط، مهملين أثر المعرفة في معرفة الآخر "لم يكن خلال وقت طويل لريتشارد نوليس وأسلافه الأوروبيين الكثر والرواة نظراء بين العرب الأتراك الذين أظهروا عموما القدر نفسه من قلة الاهتمام كما في العصور الوسطى، وهناك بينة على أن الموظفين والضباط العثمانيين كانوا من وقت إلى آخر مهتمين بالتطور فيما وراء الحدود، ولكن قلما انعكس هذا الاهتمام في الأبحاث والكتابات الأدبية. ولم تكن ثمة محاولة لتعلم اللغات غير الإسلامية، وعندما تطلب الأمر معرفة اللغات أو الظروف الأوروبية، كان الحكام المسلمون قانعين بالاعتماد على رعاياهم من غير المسلمين أو على اللاجئين الأوروبيين الآخرين الذين يعملون في خدمتهم ...قد تلقى السبق الأوروبي في مجالات الوسائط الحربية والبحرية بعض العناية، وجرى تبنيه - إلى حد ما- في بعض الأحيان، لكن الآداب والعلوم حتى السياسة والاقتصاد في أوروبا، كان ينظر إليها على أنها لا صلة لها بالحياة أو باهتمامات الإسلام، وبذلك جرى تجاهلها. يمكن فهم موقف كهذا في العصور الأولى، أو يمكن تبريره، غير أنه في أواخر القرن السابع عشر وعلى الرغم من أن الباشوات الأتراك ظلوا يحكمون في بلغراد وبودا وأن الجيوش التركية ظلت تهدد فيينا فقد أصبح هذا التجاهل عتيق الطراز وعلى نحو خطير"،[24] إلى أن يصف لويس برنارد الوضع في الإمبراطورية العثمانية بالخطير، فقد انزاحت كلية العصور الوسطى الظلامية عن أوروبا لتعلو سماء الإمبراطورية العثمانية، ثم يمضي لوصف الاستفاقة المتأخرة للعثمانيين في مختلف أشكالها، مثلت معاهدة كارلوفيتس للسلام بتاريخ ٢٦ كانون الثاني عام ١٦٩٩م آخر خطوة للتقدم والتفوق العثماني على أوروبا ومنعطفا حاسما في علاقة أوروبا بالإسلام، فالتقدم من أوروبا الشرقية عبر السهوب ومن غرب أوروبا عبر المحيطات، هدد بتطويق قلب الأراضي الإسلامية، وأظهرت الحرب في وسط المعارك أن الجيوش العثمانية تخلفت عن أعدائها الأوروبيين في التسلح والعلوم العسكرية، حتى إنه لأمر يدعو إلى التساؤل المحير كيف كان للأسلحة أن تكون أولى صادرات أوروبا في فترة الحروب الصليبية وحتى العصور الحديثة، وبينما رفض العثمانيون انتهاك قدسية كتابهم الديني عن طريق طباعته، فقد نسخوا كتبهم الدينية وكتبوا قراراتهم الإمبراطورية على أوراق مطبوعة

بالعلامة المائية صنعت في أوروبا، ويمضي لويس برنارد في تشخيص تداعيات غفلة الإمبراطورية العثمانية عن رؤية العالم الجديدة في ربط الحياة السياسية بالاقتصاد، حتى يقر بأن المستفيدين من التغير الاقتصادي البورجوازي هم الغرباء والأقليات الدينية حيث مثلوا الوسطاء مع الاقتصاد العثماني فيما كانوا يعدونا هامشا في الحياة اليومية لأنهم يهود ومسيحيون ويونانيون وأرمن، ففي عام ١٩٢١ سجل أربعون مصرفيا من القطاع الخاص في استانبول، لم يكن أي منهم تركيا مسلما،[25] يحاول برنارد أن يبين عجز العثمانيين عن مجاراة الرؤية الجديدة للعالم، وهي حقيقة استفاق عليها العالم الإسلامي متأخرا، وذلك بعد نضوب كمونه الحضاري، فلم يعد قادرا على مجاراة مشروطية التاريخ والإنسان، وحتى تبنيهم لمكتسبات الحضارة الجديدة كان محصورا في أشياء ذات فائدة واضحة كالأسلحة وبناء السفن وممارسة الطب، ولكن هذه الوسائل جردت قدر الإمكان من الرموز الثقافية المصاحبة لها، فتحولت إلى نتاج حضاري ميت،[26] توهما من العثماني المسلم أن الصراع لازال قائما كما كان وعليه أن يحسم في رفض الاعتراف بالهزيمة ولو من باب المكابرة على مستوى الفرد والذات.

أورد لويس برنارد العديد من الشهادات في وثائق العثمانيين التي تنبه للخطر القادم من أوروبا، فقد حذّر لطفي باشا أكبر وزراء السلطان سليمان الكبير ''تحت حكم السلاطين السابقين وجد العديد ممن حكموا الأرض، ولكن الذين حكموا البحر كانوا قلة، وفي قيادة المعارك البحرية كان الكفار متقدمين علينا، علينا أن نتغلب عليهم'' وفي عام ١٥٨٠ تقريبا تلقى العثمانيون أخبار العالم الجديد بقلق وريبة حيث حذر جغرافي عثماني مراد الثالث من خطر الجغرافيا الجديدة الناشئة حول الإمبراطورية وأثرها على التجارة العالمية.[27]

أفضت الأزمات الجديدة الناتجة عن التحوّلات الطارئة السعي إلى البحث عن الأسباب الحقيقية، لكن الحلول كانت ترقيعية عتيقة، وبدأ الأتراك المسلمون؛ رجال الدولة، والجنود والباحثون بمواجهة الحقيقة المرة لضعفهم، مقارنين مجتمعهم بمجتمع أوروبا، آملين أن الأخير يمكن أن يقدم بعض الحلول.

٣. أوروبا مركز جديد لعالم جديد بسلطة جديدة

ما كان لأوروبا أن تنسى جدران فيينا المحاصرة مرتين، ولا أن تنسى إقامة العرب طيلة ثمانية قرون في إسبانيا، ولاضياع وأسلمة روما الثانية -بيزنطة- فكيف لها أن سَيَّجَت مفهوم الآخر المسلم -العثماني التركي في وقت مضى- في مفهوم وصورة

وعلاقة لا ينفلت منها أبدا لأنه لم يعد العدو المرعب، بل العدو الذي رافق تشكل الأنا، فحتى تفهم أوروبا أناها لا بد لها من العودة دائما لتاريخ العثماني المسلم، فهل ترتكب هي أيضا نفس الحماقة وتهمله كآخر من وجودها، أم هي في حاجة دائمة إليه لترى صورتها في وجهه؟

لقد تباينت مواقف أوروبا من العثماني المسلم من فترة إلى أخرى، تحكمها أبعاد وخلفيات متعددة من السياسة إلى الأدب إلى المصلحة والذوق وانتهاء بحركة الاستعمار والإمبريالية، في البداية كان العداء المطلق لأنّه محصلة تاريخية لصراع طويل؛ فاحتاجت أوروبا للحظات الانتقام في أبسط الصور إلى أعقدها " فليس هناك مكان للمسلمين في أراضي العالم المسيحي التي فقدت سابقا والتي استردت ثانية الآن، وحتى جمهورية البندقية venice التي عاشت من تجارة المشرق كانت تواجه أكبر صعوبة في تحمل وجود أي خان ولو كان صغيرا ينزل فيه التجار الأتراك الزائرون"،[28] لقد أضحى وضع الأتراك في المجتمع الغربي كالعاهرات والجذام والمجانين، حتى لا يليق بمدينة كالبندقية رائدة التجارة في الشرق أن يكون بها خان متواضع لهم.

ما كان لأوروبا أن تعيد التاريخ ولا أن تهمله، لم يعد العثماني المسلم يستحق أن يكون آخر أوروبا الوحيد فقط في ظل العالم الجديد الذي امتد شرقا وامتد غربا، وما كان لها أن تهمل جوهره التاريخي ألا وهو الإسلام القادر على الانبعاث الحضاري ما توفرت له الظروف لذلك، لكن هذا الإهمال أو لفت النظر لم يكن مطلقا بل مرحليا لأنها أوكلته لمن سيسيجه في خطاب النسق العتيق "لقد أصبح الإسلام الآن بالنسبة إلى المفكرين الأوروبيين هدفا للدراسة البحثية، وشيئا ينظر إليه بفضول علمي، أكثر من أن يكون عدوا خطرا يجب أن يجابه ويدحض"،[29] إن كان العثمانيون قد استعانوا بالبارود والمدافع والسيوف في مقارعة أسوار فيينا، فقد أوجدت الجامعات الأوروبية حقل الاستشراق الذي يفت ويفكك الظواهر الانسانية ويقدم نتائجه المعرفية لمن هو أولى بها، ألا وهي السياسة. لقد نشأت في أوروبا مفاهيم جديدة وسلطات جديدة، إنها سلطة المعرفة.

٣,١. تشكيل الاستشراق

يعد الاسشتراق فرعا معرفيا، تحكمه بنية ابستمولوجية كغيره من المعارف والعلوم. له مصطلحاته الخاصة، وأدواته المنهجية، وموضوعه، وتُخصّص له الكراسي الجامعية والبعثات العلمية، وكلّ ذلك يجعل منه فرعا أكاديميا.

فالاستشراق بنية، ''والأبنية States تشكيلات تاريخية، وضعيات، أو اختباريات، 'إنهّا طبقات رسوبية' مترسبة، تتكون من أشياء وكلمات، من رؤية وكلام، من مرئي وملفوظ، من رحاب رؤية، وحقول قراءة مضامين وتعبيرات''،[30] فظهور الاستشراق كثقافة نصية في كتابات الأوروبيين المختلفة، وتداول رموز الشرق كثقافة بين الناس العاديين؛ حكمته تراكمات تاريخية، وجدليات مادية معرفية؛ انتهت به إلى فرع معرفي أكاديمي يعرف بالاستشراق (Orientalism)، ''فأيّ نظام من الأفكار قادر بعد كل حساب، على أن يبقى دون تغير كحكمة قابلة للتدريس (في المجامع، والكتب، والمؤتمرات، والجامعات، ومعاهد السلك الخارجي) من زمن أرنست رينان في أواخر ١٨٤٠م إلى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة. لا بد أن يكون شيئا أكثر صلابة ومتانة من مجرد مجموعة من الأكاذيب''.[31] فالاستشراق تظافر عدد من الأشياء وتفاعلها؛ من ظروف اقتصادية، واجتماعية، وسياسية؛ وروائيين، وفلاسفة، ومنظرين، وإداريين استعماريين؛ وملاحم ، وروايات، وأوصاف اجتماعية، وعادات، وتقاليد... إلاّ أنّ الدلالة الأكثر تقبلا هي دلالة جامعية أكاديمية، حكمها نوع من التبادل المستمر بين المعنى الجامعي والمعنى التخيلي، في مجتمع غربي جديد تنظم جميع مظاهره المعرفة، فأضحى العثماني المسلم بحثا أكاديميا ليس له وجود مادي بالضرورة، تتشكل صوره وتمثلاته بعيدا عن تهديداته.

يقر إدوارد سعيد بما وفرته علاقة الشرق بالغرب من إمكانية واسعة وضخمة لظهور الاستشراق كخطاب؛ أي ما جعل تلك التجربة الفرنسية والبريطانية ممكنة وشخصية ونوعية من خلفيات تاريخية وفكرية، والبؤرة في هذا القسم كما يقول بيل أشكروفت ''هي النظر إلى التمثيل من أجل توضيح التشابهات في الأفكار مثل الطغيان الشرقي، والحساسية الشرقية، الصيغ الشرقية في الإنتاج، والإشراق الشرقي''،[32] ثم مرحلة عرض التراكيب الاستشراقية وإعدادات التركيب، ويخص المادة البريطانية والفرنسية وكيفية سير الكتاب الفيلولوجين، والمؤرخين، والمبدعين الكبار، في القرن التاسع عشر معتمدين على تراث من المعرفة المتشكلة مسبقا ببناء شرق نصي والتحكم فيه؛ حيث أمكن للاستشراق أن ينضج في شكل حقل معرفي تأثرا بالحقول الأخرى. وليس من قبيل الصدفة أن تكون الدول المنافسة للإمبراطورية العثمانية أكثر المساهمين في حقل الاستشراق؛ روسيا، النمسا، بريطانيا، فرنسا.

٢,٣.سلطة الاستشراق:

ارتبط مفهوم السلطة بعالم السياسة، وعلاقات الدول، والحكومات، وأضحى مفهومها الاجتماعي- السياسي أكثر انتشارا وتداولا من أيّ تعريف آخر؛ تبعا لطبيعة العلاقات المادية الصدامية بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا. لكنّ هذا الفهم الشائع لا يعكس طبيعة السلطة في علاقتها بالمعرفة.

السلطة نتاج اجتماعي، يتمظهر في سلوك الإنسان كفرد، أو ما ينتج عنه من تنظيمات ومؤسسات في مختلف الميادين، والغاية في كلا المظهرين هي التحكم في توجيه الأشياء المختلفة، وحتّى المتنافرة في اتجاه واحد، يطمس، ويغيّب كلّ الذوات المتفاعلة؛ لأجل مصلحة واحدة، تقف من ورائها ماهية جوهرية، تحرسها عادةً ميتافيزيقا مقدسة، تمنع السؤال وتجيب بقدرٍ. فسلطة المجتمع تقف وراءها طبقة ترعى مصالحها باسم حماية الأخلاق، وقداسة الدين، فالأخلاق والدين مفهومان ميتافيزيقيان، يصلحان كشعارات عمومية، تختفي وراءها كثير من الممارسات السلطوية الاستلابية؛ هذا جوهر ما استخلصه الدرس الاستشراقي من العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات الشرقية، فنظام الأسرة وعالم الحريم من مظاهر السلطة التي تأسس عليها حكم العثمانيين.[33]

السلطة في الخطاب الاستشراقي؛ كونه خطاباً، وعلاقاته بالمعرفة، وإرادة الحقيقة؛ كونه خطابا متمظهرا ماديا في مؤسساته المعرفية، والجامعية، ونظم النشر، والتدوين، كذلك؛ كونه يندرج في أنماط كتابة معينة تشكلّت في ظل مركزية معرفية أوروبية، وصدارة اقتصادية، وعسكرية عالمية، دون أن ننسى الانتماء العام لعلم الاستشراق لدائرة العلوم الإنسانية، وما اكتنف تشكلّها، ونضجها من أيديولوجيا، ومركزية، تحتجب تحت مسميات الموضوعية، والعقلية.

فالخطاب الاستشراقي ليس مجرد موضوع سياسي، ينعكس بصورة سلبية في الثقافة، والبحث، والمؤسسات، كما أنّه ليس مجموعة نصوص يجمعها الشرق كموضوع، بل هو توزيع، وإعادة توزيع للوعي الجيوسياسي إلى نصوص جمالية، وبحثية، واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية، وفقه لغوية، تخلق فيما بينها سلسلة مصالح، وتحافظ عليها بوسائل خاصة؛ كالاكتشاف البحثي، والاستبناء الفقه لغوي، والتحليل النفسي، والوصف الطبيعي، والاجتماعي. فلويس برنارد يصف لنا مفهوم الوطن في الإمبراطورية العثمانية وكيف شابه التحول، بعيدا عن واقع حقيقي مقابل للنص ''كان الوطن بالنسبة إلى المسلمين الأتراك العثمانيين هو الإمبراطورية التركية العثمانية التي تضم معظم أراضي الإسلام المركزية في الشرق الأوسط، ومن بين

حكامها السابقين عرب وسلاطين عثمانيون ... وكان الولاء الوطني مكنونا للوطن ويقدم للسلطان العثماني"،[34] فالحقيقة أضحت نصية أكثر منها دنيوية، فالإمبراطورية العثمانية عرفت من الولاء والتمرد تجارب كثيرة تجعلنا لا نجزم بحقيقة واحدة لمفهوم الوطن؛ الذي هو في جوهره مفهوم سياسي حديث لم تعرفه الحضارات القديمة.

الخطاب الاستشراقي إرادة معينة لفهم عالم مختلف، والسيطرة عليه أحياناً؛ إنشاءٌ في وضع تفاعل غير متكافئ مع مختلف أنماط القوة، مكتسباً شكله إلى حدّ ما من تفاعله مع القوة السياسية، والقوة الفكرية، والقوة الثقافية؛ من شرائع الذوق، والنصوص، والقيم، والقوة الأخلاقية.

فهذا الإرث المعرفي الاستشراقي وهو يحبو، ثمّ يخطو، ثمّ يقف على رجلين كفرع معرفي حقيقي متميّز بخلفية خطابية، تستثمره فيما يناقضها، وفي صدامها مع الشرق أصبح يدّعي تمثيل الحقيقة وتمثّلها؛ حين اقترن بالتجربة المادية الناجحة الّتي تثبت صحة ما ادعته المعرفة الاستشراقية.

فالمعرفة العلمية المضبوطة أصبحت تساهم في تشكيل الحقائق، وتأكيدها، لا من حيث هي معارف صحيحة، بل من حيث هي من اكتسبت سلطة قول الحقيقة دائماً، حتّى أضحت قناة تمرير معارف غير علمية بعنوان الموضوعية، يحتاجها الخطاب في حربه ضد الخطابات المنافسة له، فالتاريخ والجغرافيا حقّقا إنجازات ضخمة في أوروبا والولايات المتحدة. والباحثون الآن يمتلكون بحق قدرا أكبر من المعرفة بالعالم، ماضيه، وحاضره. من ثمّ كان موضوع الجغرافيا غير التّام، يفسح المجال أمّام المعرفة التخيّلية؛ جغرافية، وتاريخية، لتتداول كحقائق مثلها مثل حقائق الفرع المعرفي المضبوط وذاك ما طال بالضبط عالم الحريم في الإمبراطورية العثمانية، حيث عملت الإيروتيكية الغربية عملها في تخيل عالم الحريم وألف ليلة وليلة.

فالحركة الاستعمارية نتاج رحلات البحث الجغرافي الّتي أظهرت للوجود أراضي كانت مجهولة، وغير مكتشفة -خارج حركة التوثيق الجغرافي العالمي في العالم القديم- وقد تدّعم هذا النشاط الكشفي بعلم الخرائط الّذي حوّل أمّاكن الآخرين الحقيقية إلى نصوص عن طريق التسمية، وفي أغلب الأحيان تعاد تسمية الأمّاكن بأسماء رمزية، وعلامات حرفية تدل على السيطرة والمراقبة.

ولقد جسّدت الخرائط إيديولوجيا أوروبية على الأقاليم في أرقام الطرقات، عدا أسماء الأمّاكن. وقد كانت الأمكنة الفارغة على الخرائط الأولى، تعني الانفتاح

والإغراء والعذريّة، حيث أمكن للخيال الأوروبي أن يعكس نفسه بحريّة، وحيث أمكن للمكتشف الأوروبي (خاصة الذكر)، أن ينفذ، ويسيطر. فالأمكنة الفارغة هي ذاتها دعت التصورات الثقافية الأخرى -الغريبة عن المكان- إلى إبداع تصورات حول الوحوش، وأنصاف البشر، والرجل البري المتوحش. وقد انتقلت هذه المفاتيح من خرائط أستراليا إلى خرائط إفريقيا، وأضحى الكنبالي (الأسترالي المتوحش) مرادفا للإفريقي الأسود. ولم يكن بالإمكان سماع صوت الأهالي، أو أي شكل من أشكال الحضور، في هذا الخطاب العلمي القياسي الجديد، أو في النصوص المكتوبة الّتي تضمّنها علم رسم الخرائط.

كانت صور الأهالي في كلّ الأحوال صورا توضيحية للمتوحشين، والكنبال، أو الوحوش.[35] لقد امتزج الخيالي بالمعرفة في صورة حقيقة مسلم بها، اتجّاه عالم اسمه الشرق، في شكلّ خطاب اسمه الاستشراق، لقد أضحى صدى المعرفة الّتي هي من قبيل الجغرافيا التخيلية، يتردد في جسم كامل الخطاب الاستشراقي، ولم يسلم أيّ موضوع من موضوعاته، وخاصة بعدما تمّ تسليم الواقع الشرقي كعالم حقيقي إلى كتلة من النصوص، تفوق التصوّر، ذاتية التولد، والانتشار، بعيدا عن كلّ موضوعية، مع تقزيم الشرق، ومعانيه، وإحالته إلى عالم عتيق رومانسي يقابله تطور العلوم الغربية.

لم يُسلِّم لويس برنارد باتهامات الاستشراق ودافع عليه وعلى نتائجه المعرفية، و"يطرح انتقاد الاستشراق عدة أسئلة حقيقية، وقد قال العديد من النقاد إنّ المبدأ الموجه لهذه الدراسات يعبّر عنه هذا القول "المعرفة قوة" وإن المستشرقين كانوا ينشدون معرفة الشعوب الشرقية بهدف السيطرة عليها ...ولاشك أن هناك بعض المستشرقين الذين خدموا الإمبريالية أو استفادوا موضوعيا أو ذاتيا من الهيمنة الإمبريالية. ولكن أن نعد ذلك تفسيرا للمشروع الاستشراقي ككل فذلك إنما يمثل قصورا عبثيا ..."،[36] استفادت أوروبا أيما استفادة من علاقتها بالإمبراطورية العثمانية لا في رد وإعادة رسم الصورة والتحكم في التمثل، بل في اكتشاف مفهوم جديد للآخر يقوم على طبيعة الوسيلة التي يمكن من خلالها أن تقرأ الآخر قراءة جديدة بعيدا عن التصورات التقليدية والشعوبية.

* * *

مصادر البحث ومراجعه

- إدوارد سعيد. الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب. الطبعة العربية الرابعة. بيروت، لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥م.
- بيل أشكروفت. بال أهلواليا.إدواردسعيد''مفارقة الهوية''.ترجمة سهيل نجم. الطبعةالأولى.سورية، دمشق:نينوى للدراسات والنشر والتوزيـع،٢٠٠٠/٢٠٠٢م.
- جوزيف أبو نهرا :المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني .المؤتمر الدولي : خطاب الجماعات المسيحية في الشرق الأدنى في زمن التحولات .مركز الشرق المسيحي للبحوث والدراسات. جامعة القديس يوسف .٢٠١٣.
- جيلدولوز:المعرفةوالسلطة. ترجمةسالميفوت. الطبعةالأولى. بيروت،لبنان: المركزالثقافيالعربي، ١٩٨٧ م.
- سعد البازعي: الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف. بيروت–لبنان :المركز الثقافي العربي . الطبعة الأولى . ٢٠٠٠.
- الطاهر لبيب (تحرير). صورة الآخر، العربي ناظرا ومنظورا إليه. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى .بيروت .١٩٩٩.
- عادل الجوجري : لويس برنارد سياف الشرق الأوسط ومهندس سايس بيكو ٢. حلب – سوريا .دار الكتاب العربي .الطبعة الأولى .٢٠١٣.
- عبد الله ابراهيم :المطابقة والاختلاف ، بحث في نقد المركزيات الثقافية .المؤسسة العربية للدراسات والنشر .الطبعة الأولى .٢٠٠٤.
- لويس برناردد: استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية. تعريب سيد رضوان علي. الدار السعودية للنشر والتوزيـع. الطبعة الثانية. ١٩٨٢.
- لويس برناردد : الإسلام والغرب. ترجمة فؤاد عبد الطلب .منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق-سوريا. ٢٠٠٧.
- See.Bill Ashcroft. Gareth Griffiths. Helen Tiffin. post-colonial studies. thekeyconcepts. London, Great Britain:Routledge . 2006.

* * *

الهوامش

[1] المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ولاية ميلة. الجزائر

[2] عادل الجوجري: لويس برنارد سياف الشرق الأوسط ومهندس سايس بيكو ٢. حلب - سوريا .دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى. ٢٠١٣. ص١٨.

[3] لويس برناردد: الإسلام والغرب. ترجمة فؤاد عبد الطلب. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق-سوريا. ٢٠٠٧. ص١١٣.

[4] لويس برنارد: استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية.تعريب سيد رضوان علي. الدار السعودية للنشر والتوزيـع. الطبعة الثانية. ١٩٨٢. ص٤٨.

[5] انظر:لويس برنارد: الإسلام والغرب. ص ٤٤.

[6] صورة الآخر، العربي ناظرا ومنظورا إليه. تحرير الطاهر لبيب. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة الأولى. بيروت. ١٩٩٩. ص٢٤٨.

[7] لويس برنارد: الإسلام والغرب. ص ١٧.

[8] انظر: المصدر نفسه. ص ١٧-١٨.

[9] منسوب إلى الرومان لهيمنتهم عليه.
[10] الأصح دنيا المسلمين.
[11] المصدر نفسه. ص٢٤.
[12] لويس برناردد: استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية. ص٣٠.
[13] انظر: جوزيف أبو نهرا :المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني. المؤتمر الدولي: خطاب الجماعات المسيحية في الشرق الأدنى في زمن التحولات .مركز الشرق المسيحي للبحوث والدراسات. جامعة القديس يوسف. ٢٠١٣. ص٢.
[14] المرجع نفسه. ص٤.
[15] لويس برناردد: الإسلام والغرب. ص٣٤.
[16] انظر: المصدرنفسه. ص ٤٨.
[17] انظر: عبد الله ابراهيم: المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى. ٢٠٠٤. ص ٣٣٨-٣٤٤.
[18] انظر: جوزيف أبو نهرا: المسيحيون وهاجس الحرية في العهد العثماني. ص٧ - ٩.
[19] لويس برناردد: الإسلام والغرب. ص٣٦.
[20] المصدر نفسه. ص٢٧.
[21] المصدر نفسه. ص٣٧.
[22] المصدر نفسه. ٣٧.
[23] سعد البازعي: الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف .بيروت-لبنان: المركز الثقافي العربي. الطبعة الأولى . ٢٠٠٠. ص٢٠.
[24] لويس برناردد: الإسلام والغرب. ص ٣٨.
[25] انظر: المصدر نفسه. ٤٨-٥١.
[26] انظر: المصدر نفسه. ٥٣
[27] انظر: المصدرنفسه. ص ٥٣.
[28] المصدر نفسه. ص٢٦.
[29] انظر: المصدر نفسه. ص٥٢.
[30] جيلدولوز: المعرفة والسلطة. ترجمة سالم يفوت. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧ م. ص ٥٥.
[31] إدوارد سعيد. الاستشراق. ترجمة كمال أبو ديب. الطبعة العربية الرابعة. بيروت، لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٥م. ص٤١.
[32] بيل أشكروفت. بال أهلواليا. إدوارد سعيد "مفارقة الهوية". ترجمة سهيل نجم. الطبعةالأولى.سورية، دمشق: نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠/٢٠٠٢م. ص٧٩.
[33] انظر اساتنبول. ص٥٩-٩٥
[34] لويس برناردد: الإسلام والغرب. ص ٢٤٧.
[35]

– See. Bill Ashcroft. Gareth Griffiths. Helen Tiffin. Post-colonial studies. thekeyconcepts. London, Great Britain: Routledge . 2006.P31, 32, 33.

[36] لويس برناردد : الإسلام والغرب.ص ١٧٧.